وأبناء صلاح الدين إلى درجة أن يستقووا بالأجنبي ضد بعضهم البعض، بل تكرر ذلك في الأندلس في أواخر العهد العربي، ومرة أخرى في العهد العثماني الذي استمر أربعة قرون حيث سيطروا على العرب وزادوهم تخلفاً وجهلاً بعد أن أهملوا التعليم والزراعة، أي العقل الاقتصادي في ذلك الوقت، هذا إذا اعتبرنا تركيا أوروبية، بصرف النظر عن التخريجات الدينية، وأخيراً الاستعمار الأوروبي الحديث الرأسمالي في القرنين التاسع عشر والعشرين وأحد نتائجه الغزو الصهيوني...

أما محاولات محمد على وعبد الناصر، وكل منها رفع لواء النهضة والوحدة القومية بطريقته، فأخفقت ولم يتبق منها إلا النزر اليسير، بل كان فشل البرجوازية القومية عاملاً أساسياً في اندفاع الإسلام السياسي الأقل تطوراً في رؤيته الفكرية «والديمقراطية» والاقتصادية من الرؤية القومية على علاتها وتشوهاتها... دون أن تنسى أن معظم الحركات الإسلامية تناهض كامب ديفيد السادات وجولات بيكر وهي تتململ في فلسطين... أما حزب الله فهو يقاتل ببطولة استثنائية تحوز على احترام الجميع خصوصاً أنه تجاوز مراهقاته في البداية عن الدولة الإسلامية... فلبنان متعدد الطوائف والقوى الاجتماعية...

ومع ذلك يفيد الاستماع لإذاعة القدس، فهي تغطي الأحداث أولاً بأول، ناهيكم عن الصحافة المحلية ونشريات الانتفاضة وما يصدر حزبياً من تحليلات أبعد مدى وعمقاً...

لا نخشى على الانتفاضة لأننا مصابون بالفوبيا، أو لا نثق باليمين الفلسطيني، فما يقرر تحليلنا معطيات أكثر ثباتاً... ونتمنى ان يكون تحليلنا خاطئاً.

إننا نلحظ ميولاً تساومية في الخارج والداخل، وفزعاً عرفاتياً جراء أزمة الأوضاع في الاتحاد السوفييتي والتهديدات الأمريكية للعراق... ولا خلاف على أثر ذلك على قضيتنا وانتفاضتنا، غير أن الفزع والمساومات لا يفضيان إلا إلى مزيد من الضرر، أما التاكتيك الأصوب فهو الثبات وتجذير الانتفاضة. ومؤخراً قال عرفات لوزير خارجية أوروبي «دون قلمي لا يسير شيء» وهذه قوة سلبية في السياسة، وهي صحيحة تماماً ولعله يستمر في هذا الموقف فلا يتعاطى مع زرافات الوفود التي تزوره يومياً في تونس بغية تطويعه وثلم نصله وتوريطه في أوهام سياسية. فميزان القوى حتى اللحظة، وهو العامل الحاسم، في تقرير أي مباحثات أو حلول سياسية، مختل جذرياً لصالح العدو الذي حشرته الانتفاضة في موقف دفاعي. ولكنه أقوى منّا، وهذا ليس الأهم، فأمريكا هُزمت في فيتنام وفرنسا هُزمت في الجزائر وهما أقوى من الفيتناميين والجزائريين، أما الأهم فالاحتلال لم ينفك قادراً على التعايش مع الانتفاضة فخسائره محدودة وأرباحه أكثر بكثير... فهو يستبيح الأرض الفلسطينية وينهب ثرواتنا المائية وما هو أكثر من «التبادل اللامتكافئ» سمير أمين، «ونهب المستعمرات» لينين، إنه يستبيحنا تماماً ويلحق اقتصادنا به تماماً ويستغل عمالنا بصورة مضاعفة، فأجرة الفلسطينيين بين ٥٠ – ٦٠٪ من أجرة اليهودي وو و...

أما غزل بعض الأوساط، أما اتصال بعض القيادات، بالبوابات الأجنبية، فهما ينطويان على مخاطر غير جلية بعد، ولكن الكتاب يعرف من عنوانه... وليس أمامنا إلا تفعيل الانتفاضة وتجذيرها، كما التحالف مع